مطر وظلام، وشوارع خنقها الفراغ، وأخرى متخمة بالخيام

اليمنيون عشية رمضان.. ما الذي تغير !؟

تحقيق/محمد محمد إبراهيم

بين الأمس واليوم ما الذي تغيّر في مسارات التفاعل الوجداني مع ضيف الإسلام الكبير والكريم شهر رمضان المبارك؟ السؤال في هذا المقام لا يذهب نحو ما يجري من استعدادات رمضانية وما يرافق ذلك من استعدادات، إذ أنه يبحث في جوهر الجو الإسلامي والروحاني لدى اليمنيين في عشية اليوم الأول لرمضان وفاتحة الصوم وتغيير تقويم العمل اليومي وإعادة برمجة جدول السهر الرمضاني وطقوسه الروحانية ومواقيت العبادات.
اليمنيون، كيف كانوا يقضون عشية اليوم الأول لرمضان؟ وماذا عنه هذا العام، خصوصاً في العاصمة صنعاء؟ وما الجديد؟

إحراق الإطارات في الشوارع أمر مخل بالبيئة وتجاوز قانوني كان قد غاب منذ زمن بعيد

□.. بالأمس «القريب أو البعيد» كان اليوم الأخير لشهر شعبان، هو بمثابة محطة الانتظار لقرع طبول البهجة الروحية والاستعداد التام لليلة الأولى من شهر رمضان المبارك، فالأطفال بأغانيهم وتراحيبهم ينطلقون في الشوارع والأحياء مهللين مزغردين، بينما الكبار يملأون الأسواق، ويرتادونها لإكمال الإستعدادات وشراء مختلف السلع والأكلات اللازمة لرمضان، فحسب ما عهدناها في السنوات السابقة، كانت الشوارع في صنعاء تتهيأ منذ ظهيرة آخر أيام شعبان، اللحظة التي يتحول فيها مسار الحركة في السوق، في المقهى، في المحلات التجارية، في دور العبادة ومجالس الذكر والسهر الرمضاني إلى ذروة الإحتدام، وكانت ساعة الأصيل «العصر» هي الموعد الحقيقي لبروز الجو الرمضاني إلى وجوه الناس ووجه الحياة في المدينة أو في القرية، خصوصاً إذا ما تأكد الجميع من إتمام عدد أيام شعبان الثلاثين.

أفواج من الناس والعوائل يتقاطرون من كل حدب وصوب إلى المراكز التجارية والأسواق المركزية ذات الصلة بالمواد الغذائية ومستلزمات رمضان، زحام الشوارع لا يكف عن الاختناق، وأنوار المدينة ترسل ابتهاجات من، اللمعان، من المنازل والعمارات السكنية والتجارية والساحات العامة ومتنفسات المدينة، وعلى هذا المنوال تتصاعد وتائر الحياة الرمضانية التي تأخذ من الليل فسحة للدعاء والتبتل والشوق والتواصل الدائم.

ما الذي تغيّر؟

هذه سلسلة جزئية من صور المشهد العام والمعتاد لعشية أولِ ليلة رمضان من كل سنة على مرِ الأيام.

فما الذي تغير حتى تتهشم قلعة الفرحة تحت مواطئ السكون الليلي الدامس إلا من أضواء خافتة لسيارات انهكها فراغ الشوارع يقول أحمد محمد البطلي صاحب محلات ومطاحن البطلي للبهارات والتموينات الغذائية: لم نكن نتوقع أننا سنصل إلى هذه الدرجة من الركود التجاري، في العام الماضي في آخر يوم من شعبان وعشية رمضان المبارك شهدنا زحاماً منقطع النظير ابتدأ من عصر آخر يوم في شعبان، ولم ينته إلا في سحر أول يوم رمضان ولم يفض المحل، حتى (٥) دقائق فالزبائن من أرباب الأسر والعوائل يتقاطرون على المحل بالمئات بغية شراء المواد والسلع الغذائية والبهارات وكل مستلزمات رمضان.

وأفاد البطلي بأن حراك هذا العام لا يزيد عن ١٥٪ من حراك العام الماضي، ومرجعاً ذلك إلى الأزمة السياسية التي قتلت كل فرح في النفوس، وألقت بظلالها السلبية على مستوى معيشتهم ودخولهم، وبالتالي على القدرة الشرائية لدى الأسرة.

وأضاف : هذا العام لم نرَ إلا الفراغ والظلام وزبائن لا يحملون نفس الطموح والأمل والفرحة، إلى جانب هذا اننا قضينا عشية رمضان في ظلام دامس.

المتسوقون أنفسهم لم يأتوا بقوائم العام الماضي، فما كان يكفي لشراء عشرين صنفاً من المواد الغذائية صار لا يكفي لشراء الدقيق وما يلزمه من الضروريات، وهذا الأمر والمعادلة القاهرة هي التي رسمت ملامح لخفوت وانعدام الحراك المعهود الذي تشهده الأسواق والتجمعات عشية رمضان كل عام.

مطر ودخان

منذ عصر الأحد، آخر يوم من شعبان، والأمطار الغزيرة تخيّم على العاصمة صنعاء مفرزةً جواً من الفرح بالمطر وآخر من الألم جراء تقطع الشوارع والأحياء التي شهدت إحراق الإطارات من صباح ذلك اليوم، ولا أدري ما الأسباب القائمة وراء هذه الظاهرة السيئة، لتزيد الجو ظلاماً وحلكةً تعكر المزاج.

أهم ما في مشهد المطر الذي غمر الشوارع بسيول محملة بوعثاء التدني في مستوى النظافة، خصوصاً في المناطق القريبة التي تقع فيها مخيمات المعتصمين وما رافق هذه الأمطار من مشاهد مقززة عكست نفسها على طقوس الناس وابتهاجهم عشية رمضان.

المطر الذي تزايد من قبيل أذان المغرب رغم جمال صوته، إلا أنه مقتول بمهمة غسل الشوارع وإسقاط سواد الدخان من أجواء المدينة صنعاء، التي لوثها في باب أول سهرات العرس الرمضاني وخيم قلق عام في نفوس الناس.

كانت مهمة المطر صعبة جداً ولا تزال، فسيله الذي تهادى للسائلة كان مسوداً ومتخماً بالأذى، والقاذورات وأكياس علب البلاستيك، حتى مشهد السائلة العصري لم يكن عشية رمضان ملتقى وجع لعاصمة أثقلتها نُذر الحرب وتكوّم الزبالة واحتدام الشحناء وأستار ظلام قاتل للجمال.

أدخنة الإطارات التي شهدتها العاصمة يوم الأحد المتمم لشهر شعبان، كانت نتاجاً حتمياً لأطفال يتمردون على القانون في ظل حضوره، فما بالنا في أزمة سياسية خانقة أعادت العاصمة إلى مربع العشوائية والفوضى وإطلاق الأعيرة النارية وقنابل الألعاب النارية المخيفة في الهواء دون سبب منطقي، وهذا مشهد لم تشهده العاصمة بتاتاً في استقبال شهر رمضان عبر تاريخها الإسلامي.

ظلام يقتل البقية

ما تبقى من مشاهد عشية رمضان الجميلة هو الضوء، لكنه هذه المرة لسوء الحظ وقع تحت أيادي الغدر القاتلة لكل جمال، ففي التاسعة والنصف مساءً والناس في العاصمة يتأهبون لإحياء أول ليلة من رمضان، انطفأت الأنوار دون إنذار مسبق، ليس لأن المنطقي يقتضي إبلاغ الناس بإطفاء الأنوار قبلها بدقائق، بل لأن الفعل الجبان دائماً لا يراعي أي منطق بتاتاً ولا أي بُعد إنساني أو ديني، الناس أفاقوا من فرح ديني على ظلام ليعجزوا حيرةً بين أن يلعنوا الظلام أو يلعنوا الجناة، وكلاهما لا يفيد معهم إلا قطع دابر الفاسدين الذين تطاولوا على كل أعراف الدين والإنسانية جمعاء باعتداءاتهم المتكررة على الكهرباء.

تصوير/حويس

انطفاء الكهرباء ولد غبناً وألماً قتلا فرحة الناس عشية رمضان